

الاندلسي أحد خدم القائم بجانه وهي المربة من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابنتي الحمامات والخنانات والقصور والمنتزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمئة درهم فتسارع الناس الى العماره فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذاما التقطناه في هذه المجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

## سماع الالخان<sup>(١)</sup>

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأي شأن عند الامم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور نمرود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين<sup>(٢)</sup> والمغنين وأدوات الطرب كالشبابه والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) في لفظ الموسيقى كما في سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين لغتان احدهما موسيقى بمنتهين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والاخرى موسقى بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللغتين هو يضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهلة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالخان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماء على هذا العلم في سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف في لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زايماً والقاف كافاً وفتحوا السكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذ هم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فلهم يعبرون تارة بموسيقى

اجمعت الامم من جميع الطبقات (الموسيقى الشرقي) على حب الالحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم ولكل أمة ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم الا بتعود سماعها أو بمعرفة مواقع الطرب في أي لحن كان. ومن الدليل البين على ان لها تأثيراً في النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والاعراس والولائم وأخرى عند الحزن والغم والمصائب والمآتم وطوراً في بيوت العبادات والاعياد وآونة في الاسواق والمنازل وفي الاسفار والحضر وعند الراحة والتعب وفي مجالس الملوك ومنازل السوقة ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس

قال ابن ساعد: ومنفعة الموسيقى بسط الارواح وتمديدها وتقويتها وقبضها أيضاً لانه يحركها اما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة ويظهر الكرم والشجاعة ونحوها واما الى مبدئها فيحدث الفكر في العواقب والاهتمام ونحوها ولذلك يستعمل في الافراح والحروب وعلاج المرضى تارة ويستعمل في المآتم وبيوت العبادات أخرى قال افلاطون: من حزن فليستمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت نخذ منها نورها فاذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد. وقال ان هذا العلم لم تضعه الحكاء للتسلية واللهو بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم أما من ليس له دراية في ذلك فيعتقد انه ما وضع الا للهو واللعب والترغيب في لذة شهوات الدنيا والغرور بامانيها.

قال الغزالي في الاحياء: لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيراً عجبياً فن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد

أو موسيقى على ما تقدم ويعنون علم النغم نفسه وتارة بموسيقار ويعنون الشخص المتصف به وتارة بموسقيري ويعنون الآلة التي يصور بها كالعود ونحوه من سائر الآلات حسياً يظهر من تنبم كلامهم حيث قالوا كل صناعة متعلقة باليد فوضوعها الجسم الطبيعي الا الموسقيري فوضوعها الصوت المشتغل على الالحان المخصوصة ولا يخفى عليك ان تماق الصناعة باليد انما يجري في الآلة فقط اه

والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الاوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج، ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه . والجمل مع بلادة طبيعه يتأثر بالحاء تأثراً يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه فترى الجمال اذا طالت عليها البوادي واعتراها الاعياء والكدال تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصفى الى الحادى ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تترزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقى رضى الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فاضافنى رجل منهم وأدخلنى خبائه فرأيت فى الخباء عبداً اسود مقيداً بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لى الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع فى الى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر فعساه يحل القيد عنى . قال : فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت : لا آكل ما لم اشفع فى هذا العبد . فقال : ان هذا العبد قد افقرنى وأهلك جميع ما لى . فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : ان له صوتاً طيباً وانى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالاً ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها الا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك قال : فاحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن انى سمعت قط صوتاً أطيب منه .

قال الغزالى بعد ايراد ما تقدم : فاذاً تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص ، مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتأثر بالنغمات

الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ،  
ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة  
ولا تحريم بل يختلف ذلك بالاحوال والاشخاص واختلاف طرق النفث فحكمه  
حكم ما في القلب

قال حجة الاسلام : ان الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها  
ثم عن مجموعها فان فيه سماع صوت طيب موزون ، مفهوم المعنى ، محرك للقلب ،  
فالوصف الاعم انه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره ، والموزون  
ينقسم الى المفهوم ، كالاشعار والى غير المفهوم ، كاصوات الجمادات ، وسائر  
الحيوانات ، أما سماع الصوت الطيب من حيث انه طيب فلا ينبغي أن يحرم  
بل هو حلال بالنص والقياس . أما القياس فهو انه يرجع الى تلذذ حاسة السمع  
بادراك ما هو مخصوص به والانسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة ادراك  
وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء  
الجارى والوجه الحسن وبالجملة سائر الالوان الجميلة وهي في مقابلة ما يكره من  
الالوان الكدرية القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الانتان المستكرهة  
والذوق الطعوم اللذيذة كالسومة والحلاوة والحموضة وهي في مقابلة المرارة  
المستبشعة والمس لذة اللبن والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة والضراسة  
وللعقل لذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الاصوات  
المدركة بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنهيق  
الخمير وغيرها فما اظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها .

ونقل الغزالي أيضاً عن أبي طالب المكي اباحة السماع عن جماعة فقال : سمع  
من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية  
وغيرهم . وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي باحسان وقال  
لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الايام  
المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كايام التشريق ولم يزل أهل المدينة  
مواظبين كاهل مكة على السماع الى زماننا هذا فادركنا أبا مروان القاضي وله  
جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية . قال : وكان لعطاء جاريتهان

يلحنان فكان اخوانه يستمعون اليهما قال : وقيل لابي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون فقال : وكيف انكر السماع وقد اجازه وسمعه من هو خير مني فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وأنا أنكر اللهو واللعب في السماع

هذا ما قاله الغزالي ونقله في السماع وفوائده والمحرم منه في الاسلام ما كان مانعاً عن العمل والعبادة محرراً للشهوات البهيمية كما ان آلات الطرب يكون حكمها حكم السماع والتلحين وفي هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء في التقديم والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط والتوسط محمود في كل حال فانهم لم يقبلوا أن يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لانهم اذا منعوا ما هو ضروري من ضرورات الحياة لا يعود الناس يباليون ويسرون بلا وازع وعلى كل فان الاعتدال هو غاية الغايات حتى في العبادة

نحن في عصر أصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والاصول ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الالحان ما يناسب الظرف الذي هم فيه وتراعى به حالة المستمعين وقد ادعى بعضهم أن من النغبات ما يطيب في يوم ولا يطيب في آخر وبعض الالحان قد يكون لها من التأثير ما لا يكون لغيرها ولا شك ان للحالة النفسية التي يكون عليها المغنى والمغنى له دخلا كبيراً في الطرب فقد وقع لنا أن طربنا سمرات بشباب الراعى في الجبال أكثر من سماع الناي والقيثارة وأن راقنا الغناء الطبيعي أكثر من المصنع الموقع على الالحان وكثيراً ما يسمع المرء أمهر الموسيقاريين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح لسماع بدوي في البادية يحدو ويتغنى كأن النفس لا تميل الا الى الطبيعي من الاشياء الخالي من الطلاء الصناعي .

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي : الغناء على ثلاثة أوجه النصب والسناد والهزج فاما النصب فغناء الركبان والقينات وأما السناد فالثقل الترجيع الكثير النغبات وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم وانما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع

أسواق العرب وكانت العرب تسمى القينة الكرنية والعود الكران والمزهر أيضاً هو العود وهو البربط وكان أول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق طويس وهو علم ابن سريج والدلال وثومة الضحى . وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة أضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة واتقان صنعة

الغناء مؤثر في البهائم فكيف لا يؤثر في الانسان ، هو يؤثر في الطيور والهوام ، ولطالما شوهد العصفور والشحرور يرفرفان أمام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية ، وقد أخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للاغاني ورنات المثلث والمثاني كما يقترب الطروب من الاناسي ، وشوهد أن الافاعي خرجت من أوكارها تستمع لنغمة شاد أو ضربة موسيقار ، بل شوهد ان من الغناء ما تهتز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطانها ولعل ما قيل من ان صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع أو الواقائع ما يؤيده

الالحان تصفى الارواح ، وتبعث النشاط في النفوس ، فيها قد يجسر الجبان في ساحة الوغى ، ويكرم الشحيح ، ويرق الكثيف ، ويلين القاسى ، ويقوى الضعيف ، ويعدل الظالم ، ويعطف اللئيم . وخير الاغاني والانايد ما كانت ملحنة بالحن تناسبها معرفة الالفاظ جيدة المعاني وما قيل من انه ليس على المطرب أن يعرب ليس صحيحاً من أكثر وجوهه فان لجودة اللفظ والمعنى تأثيراً لا ينكره الا مريض الذوق بعيد عن مناحى الآداب سقيم الفهم .

كان الناس في القديم لا يعرفون غير العود<sup>(١)</sup> والقانون والمزامير والشبابات والصلاصل والطارات والتغيير والكوبة من آلات الطرب واليوم أتى الافرنج بالارغن والبيانو وغيرهما من أدوات الطرب ولكن جل الاعتماد على البيانو لا يكاد يخلو منه بيت ذى نعمة في الغرب يضرب به أولاده وزوجه وضيوفه ويوقعون

(١) فى الاغاني ان بن سريج وهو أحد الفنانين الاربعة المشاهير والثلاثة هم ابن محرز والغريس ومعبد هو أول من ضرب بالعود على الغناء العربى بمكة وكان عوده على صنعة عبدان الفرس رآه مع المعجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فاعجب أهل مكة غناؤهم فقال ابن سريج انا اضرب به على غنائى فاضرب به فكان أحلق الناس

عليه أنواع الاغاني والانشيد وتعلمه فيما نحسب أسهل من تعلم العود المؤلف في هذا الشرق الاقرب . والتغيير هو الغناء بالقطقة بالقضيب وانما يسمى تغييراً لان محدثه يسمون المغيرة . والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربكة في بلاد الشام .

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط ليت شعري ما هو فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنا اخبرك ما هو هو محدودب الظهر أرسح البطن له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الا حرك أعطافه وهز رأسه

وقد ورد في الكتاب والسنة وسيرة أعظم سلف الامة اشارة الى الغناء والى تجوزهم في سماعه وهم ولاشك أحسن قدوة في هذا الباب . قال القرطبي ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك أى على الغناء قوله تعالى « ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » قال مجاهد انه الغناء والمزامير « وأنتم سامدون » قال ابن عباس : هو الغناء . ومن السنة ما خرجه الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم رجع من بعض مغازيه فجاءته جارية سوداء فقالت : يا رسول الله انى كنت نذرت ان ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها : أن كنت نذرت فاضربى فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل على وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان ليخاف منك يا عمر . وفي حديث عائشة أن امرأة زفت الى رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة أما كان معهم هو فان الانصار يعجبهم اللهو . والله هو الغناء . وحكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فصعد النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا مادعا لله داع

روى ابن عسدره في العقد الفريد قال بعض أهل التفسير في قول الله

« يزيد في الخلق ما يشاء » هو الصوت الحسن . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري لما أعجبه صوته : لقد أوتيت مزاراً من مزامير آل داود كان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة . وقال أحمد بن أبي دؤاد ان كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع على البكاء حتى ان البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله .

وكان صاحب الفلاجات يقول بان النحل أطرب الحيوان كله الى الغناء وأن أفرخها تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن . قال في العقد وأردف النبي صلى الله عليه وسلم الشريد فاستنشده من شعر أمية فأنشده مائة قافية وهو يقول : هيه استحسناناً لها فلما أعياهم القدح في الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحن حسن وأجازوا ذلك في القرآن وفي الاذان فان كانت الاغانى مكروهة فالقرآن والاذان أحق بالتمزيه عنها وان كانت غير مكروهة فالشعر أحوج اليها لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر وما الفرق بين أن ينشد الرجل « أتعرف رسماً كأطراد المذنب » مرسلأ أو ليرفع بها صوته مرتجلاً وانما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور

واحتجوا في اباحة الغناء واستحسنانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة أهديتم الفتاة الى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغنى قالت : لا قال : أو ما عادت أن الانصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم  
خفيونا نخيبكم  
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بوادكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهري قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجارية بظل قارع وهي تغنى :

هل على ويحك ان لهوت من حرج

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا حرج ان شاء الله

حدث عباس بن المنفضل قاضي المدينة قال حدثني الزبير بن بكار قاضي مكة عن

مصعب بن عبد الله قال : دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو والى العراق  
لاخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية فى حجرها عود فلما دخل الشعبي أمرها  
فوضعت العود فقال له الشعبي : لا ينبغي للأمير أن يستحي من عبده قال : صدقتم  
ثم قال للجارية هات ما عندك فاخذت العود وغنت :

ومما شجاني أنها يوم ودعت تولت وماء العين فى الجفن حائر  
فلما أعادت من بعيد بنظرة الى التفاتاً أسامته المحاجر  
فقال الشعبي : الصغير ا كيسهما يريد الزير ثم قال . يا هذه أرخى من بك  
وشدى من زيرك فقال له بشر : وما علمك قال : أظن العمل فيهما قال : صدقت  
ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه .

أرق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج : اذهب فانظر من عند عبد الله  
( بن جعفر وكان ضيفه أنزله فى دار عياله بالشام ) وأخبره بخروجى اليه فذهب  
فاخبره فاقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية فلم ير فى المجلس غير عبد الله فقال  
مجلس من هذا قال مجلس فلان قال معاوية : مره يرجع الى مجلسه ثم قال مجلس من هذا  
قال : مجلس فلان قال مره يرجع الى مجلسه . حتى لم يبق الا مجلس رجل فقال  
مجلس من هذا قال مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين قال له معاوية  
فان أذنى عليلة فره فليرجع الى موضعه وكان موضع بديج المغنى فامر ابن جعفر  
فرجع الى موضعه فقال له معاوية داو أذنى من علمتها فتناول العود ثم غنى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتمثل  
فرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر  
قال : اريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لاقيت عندها لابلت ولئن سئلت عندها  
لأعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديج هات غير هذا وكانت  
عند معاوية جارية أعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديج :

وليس عندك شكر لتي جعلت ما ابيض من قدمات الشعر كالحم  
وجددت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم  
فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله فقال ابن جعفر يا أمير المؤمنين  
سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتكم وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية

كل كريم طروب ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتيه اذني فبعث الى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه والى كل رجل منهم بالف دينار وعشرة أثواب

روى المبرد في الكامل قال حدثت ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه فلما أصبح قال ليزيد : من كان مليمك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذا فاختر له من العطاء . وحدثت ان معاوية قال لعمره : امض بنا الى هذا الذي قد تشاغل باللهو وسعى في هدم مروءته حتى ننمي عليه أي نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فدخلا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقي على جوار لعبد الله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فاجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله . أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديار التي كادت ونحن على منى      تحل بنا لولا نجاء الركائب  
ومثلك قد أصببت ليست بكنة      ولا جارة ولا حليلة صاحب

ورددته الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه ثم مد رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : اتئد يا أمير المؤمنين فان الذي جمعت لتلجأه أحسن منك حالا وأقل حركة فقال معاوية : اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب .

وذكر ابن عميرة الضبي<sup>(١)</sup> في ترجمة محمد بن اسحاق بن السليم قاضي الجماعة بقرطبة انه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين وله عند أهل بلاده حالة مذكورة ومنزلة في العلم والفضل معروفة وكان مع هيئته ورياسته حسن العشرة والانس كريم النفس مات سنة ٣٦٧ حدث القاضي أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار ان رجلا من أهل المشرق يعرف بالشيباني دخل الأندلس فسكن بقرطبة على شاطئ الوادى بالعيون فخرج قاضي الجماعة

(١) بنية الماتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لاجد بن يحيى بن عميرة الضبي طبع في مدينة مجربط

ابن السليم يوماً لحاجة فأصابه مطر اضطره الى ان دخل بدابته في دهليز الشيباني فوافق فيه فرحب بالقاضي وسأله النزول فنزل وأدخله الى منزله وتفاوضا في الحديث فقال له : اصلىح الله القاضي عندي جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها فان أذنت أسمعتك عشراً من كتاب الله عز وجل وأبياتاً فقال له : افعل فأمر الجارية فقرأت ثم أنشدت فاستحسن ذلك القاضي وعجب منه وكان على كفه دنانير فأخرجها وجعلها تحت الفرش/الذي جلس عليه ولم يعلم بذلك صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضي وودعه الشيباني فدعا القاضي له وجاريته

ولا بأس هنا ان نختم هذا الفصل بأبيات في صنعة الغناء نقلها الشريف المرتضى في أماليه قال : أخبرنا المرزباني قال : حدثنا علي بن هارون قال : حدثني أبي قال : من بارع شعر بشار قوله يصف جارية مغنية قال علي : وما في الدنيا شيء لتقديم ولا محدث من منشور ولا منظوم في صنعة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات :

ورائحة للمين فيها مخيلة	إذا أبرقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم على النقي	خفا برقها في عصفر وعقود
حسدت عليها كل شيء يسها	وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته	على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً في ثيابها	تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة	سواما ولم ترفع حداج قعود
تميت به ألبابنا وقلوبنا	مراراً وتحيين بعد همود
إذا نطق صحننا وصاح لنا الصدى	صياح جنود وجهت لجنود
ظلمنا بذلك الدين اليوم كله	كأننا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا	شهود وما ألبابنا بشهود

## شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويتضع بشرف القائمين به ووضاعتهم ، وكل علم يشرف ويتضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه ، وغاية تكون وراءه . وصناعة الموسيقى هي من امارات الظرف تعد عند الأمم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهداها العرب إبان حضارتهم من السكاليات

قال ابن خلدون : والغناء يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى السكالي وتفنونوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب المذوذات ، وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان ملوك الفرس اهتموا بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغنون فيها

قال : وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم في بداوتهم وجاهليتهم . فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضاضة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيراً ولم يكن المذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلعنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره ومازالت صناعة

الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد .

قال : وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيره منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغ في تكريمه وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرایات وأحله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف . وطما منها بأشبيلية بجزر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها الى بلاد العدو بأفريقية والمغرب . وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعها .

قال ابن خلدون أيضاً : ولقد عدلت يوماً بعض الامراء من أبناء الملوك في كلمه بتعلم الغناء وولوعه بالآلات وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي : أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له : يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه وأخيه وما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم ؟ فصم عن عدلي وأعرض

هذه زبدة تاريخ الغناء أو الموسيقى في العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها أيام الحضارة . ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض أهل العلم من غير تكبر وشرف باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن في شرفها دون غيرها من العلوم فقد ذكر ابن أبي أصيبعة ان الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها الى غايتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع عنها أحياناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم السكرخي وكتاب في احصاء الايقاع وكلام له في النقلة مضافا الى الايقاع كلام في الموسيقى . ويحكى ان القانون الذي يضرب

عليه للطرب هو من وضعه وانه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم .

وألف يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب في الموسيقى فكتب رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة في المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة في الايقاع ورسالة في الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود ألّفه لاجمّد بن المعتصم ورسالة في أجزاء جبرية الموسيقى .

وألف احمد بن الطيب السرخسي العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما ألف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب الاثاؤل والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنواع الاخبار والملح صنّفه للخليفة

وألف ثابت بن قرّة كتاباً في الموسيقى ورسالة الى علي بن يحيى المنجم فيما أمر بأبائته من أبواب علم الموسيقى ورسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى . وكان أبو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين في الاندلس يأخذ روايت كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لاتفقتهم عندهم .

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسي على جلالته قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد : ان ابن باجة في الموسيقى بالمغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد . وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأديب . وكان أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمير وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ في اتقانه . وكان أبو زكريا يحيى البياسي من أفاضل العلماء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن أيضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى . وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسي العالم الرياضي الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود . وكان الحرث بن كلدة الثقفي أحد أطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك

بنارس واليمن . وكان قسطا بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً في علم الموسيقى وكان أمين الدولة بن التليذد يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى أهلها . وكان صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المقتن عالماً بالموسيقى . وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة لان أمه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهبين اللوز فاضلاً في الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظي عنده . وكان نحر الدين بن الساعاتي الفلكي الفيلسوف الطبيب خدام بني أيوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان يتادم هذا ويلعب بالعود . وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطبيبهم صوتاً ونعمة حتى انه شوهد من تأثير الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي فكثير اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك أخذته اليه واستمر في خدمته . وذكر ابن خلدكان ان أبا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور كان في شببته يضرب بالعود ويعنى فلما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب وحية لا يستظرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان أبو الحسين علي بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر من برع في الالحان وعلمها وهو من أهل غرناطة قال في نفع الطيب واشتهر عنه انه كان يعمد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويأجنه ويعنى به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل أبو الحسين بن الوزير أبي جعفر الوقشي آية في الظرف والموسيقى والتهديب وشيخه في هذا الفن أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع أشهى من الكاس للخليع قال أبو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافي :

ومطرح مما تجس بنائه \* لحناً أفاض عليه ماء وقاره

يشئ الحمام فلا يروح لو كره \* طرباً ورزق بنيه في منقاره

وكان محمد بن احمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعرف أهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعود والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرىء الامم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ولما تغلب الافرنج على

مرسية عرف له حقه فبنى مدرسة يقريء فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله  
في النفع .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمتزلة التي يصورها أهل جيلنا من  
الغضاضة والضعة بل عرف بها أناس من أهل الصيانة والعلم وما كان كل من  
تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان اسحق بن ابراهيم الموصلى  
نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر وأخبار الناس  
وله يد طولى فى الحديث والفقه والكلام وكان المأمون يقول لولاماسبق لاسحق  
على السنة الناس واشتهر بالغناء لوليتته القضاء فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر  
ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع  
انه أصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضى اشبيلية أبى بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى  
فانه كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله فى بلده قال : فكانوا  
يقولون أبو بكر الزهرى الشطرنجى فكان اذا بلغنى ذلك أغتاض ويصعب على  
فقلت فى نفسى لا بد أن اشتغل عن هذا بشىء غيره من العلم لانهت به ويزول  
عنى وصف الشطرنج وعلمت ان الفقه وسائر الادب ولو اشتغلت به عمرى كله  
لم يخصنى منه وصف أنعت به فعدت الى أبى مروان عبد الملك بن زهر واشتغلت  
عليه بصناعة الطب وكنت اجلس عنده وأكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى  
الرقاع واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عنى ما كنت أكره الوصف به . وهذا  
هو السبب والله اعلم فى اخفاء كثير من أهل الوقار والعلم انهم على جانب من  
علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المذوذ ولولا التقية لانتهى  
الينا أسماء كثير ممن لم تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المتعارفة على ان الشرف  
كله اعتبارى ولا مانع من الغناء والتلحين اذا لم يتبعه التلطح بجهاة السفاهة  
والرذيلة .

أما الملوك والامراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فأكثر من أن يحصوا منهم  
يزيد بن عبد الملك ومسامة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن  
موسى الهادى و ابراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر

والمتموكل والمهدى والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم  
من الملوك المتأخرين والله أعلم .

## الاستشفاء بالموسيقى<sup>(١)</sup>

قال افلاطون : لم يبعث الأرباب فن الموسيقى لادخال السرور على البشر  
واللذة على حواسهم بل لتسكين اضطرابات نفوسهم وتهديئة تلك الحركات المشوشة  
التي لامندوحة لجسد مليء بالنقص عن الشعور بها . وقد جعل الاطباء قديماً وحديثاً  
هذه الكلمات نصب أعينهم . عرف ذلك من ثباتهم على المحاولة في شفاء مرضاهم  
بالانغام فاستعملوا الموسيقى لشفاء أو تخفيف الصرع والسويداء والاب ( النزاع  
الى الوطن ) والخلب وضيق الصدر والهوس والجنون والبلادة والسير والتكلم  
في حال النوم والخذر والنقطة والهستريا والسكتة والفالج والسرسام وداء الاعصاب  
والحميات والنقرس وعرق النسا والرثية والطاعون والحميراء والسكب وغيرها كما  
استعملوها لشفاء الجروح والقرصات السامة ولتقوية الهضم والتنفس وترشيح  
الاخلاق فللموسيقى شأن في الطب وتستخدم للمريض وكانت تم في القديم  
معرفة فنون الشعر والموسيقى والطب لشخص واحد .

يقول الين ( الكاتب اليوناني من أهل القرن الثالث ) ان تراندر وتاليت  
وترتي كانوا أطباء موسيقيين وأوصى كسينوكرات وابقراط واسكليبيادس وكالين  
وارتي وسليوس اورليانوس وتيوفراست باستخدام الموسيقى في عدة أمراض  
عندما تنقطع الحياة من العلاج في بعض الادواء ، وكان الاحياء والاموات  
يسمعون أدوات الطرب ، قال مونارك ان القدماء كانوا يسمعون المحتضرين بعض  
الالخان وربما أسمعوها من قضاوا نجبهم لعلهم تعود الحياة اليهم . وقال سليوس  
اورليانوس ان فيثاغورس كان أول من استعمل الموسيقى في شفاء الامراض  
وانه جرب ذلك في بلاد اليونان وقال بورهان ( ١٦٦٨ - ١٧٣٨ ) لا بأس

(١) لخصناها عن المجلة الباريزية الافرنسية ونشرت في السنة الاولى من مجلة المقتبس

بنسبة جميع الخوارق التي رويت عن الرقيات والاشعار في شفاء الامراض الى الموسيقى التي كان قدماء اطباء يجيدونها .

استعملت الموسيقى في عصرنا لمعالجة عامة الامراض فأصدر بونايرت أمره الى أجواق موسيقى كتائب جيش الشرق أن تصدح كل يوم تحت نوافذ المستشفيات ولا تزال أجواق الموسيقى العسكرية الى اليوم في كثير من الحاميات في الولايات تذهب مرة أو مرتين في الاسبوع لتنغم بأبواقها أمام مرضى الجند ولقد عزمت إحدى جمعيات الاحسان في انكلترا على تحقيق تأثير الموسيقى في تسكين الآلام الطبيعية والادوية في كثير من الاسقام فألفت من مرضى الموسيقين عصابة تقوم في مكان خاص بها تتناوب العمل فيه ليل نهار لنقل الانغام الموسيقية بواسطة أسلاك الهاتف ( التليفون ) الى قاعات مخصوصة من كل مستشفى كبير في لندرا . فاسفر ما جرى من التجارب في هذا الشأن حتى الآن عن نتائج مهمة . داخل ما نجم من الفوائد ان أخذ المضطربون من المرضى ينامون ملء جفونهم واستراحوا من التشويش والتبليل وتألقت في سها لنبورغ جمعية من النساء المريضات لتصدح كل يوم بالقرب ممن أجريت لهم العمليات بالانغام الموسيقية صوتية كانت أو آلية فثبت ان درجة حرارتهم كانت تنزل وان آلامهم تخف . ومثل ذلك جرب في مستشفى بلتون بانكلترا .

والكنججة هي الآلة المستعملة في الاكثر وأحسن الآلات استعمالا في حال الأرق علبة موسيقية بسيطة تدور بحركة ساعة دقاقة أو بمحرك كهربائي . بيد أن تأثير الموسيقى في المرضى يحتاج الى درس طويل اذا أخذ بمجموعه لا على التعيين .

نشر أحد اطباء الالمان كراسته في فعل الموسيقى في النفوس فقال : انها اذا أضعفت الاصحاء فهي تسكن حواس المرضى وانها لتنفع في أوجاع الرأس والدوار والاضغاء واستشهد على ذلك بامرأة كان صوت الارغن يضيع رشدها فيعروها جذب وكانت تلك الآلة بعينها تحدث نفس التأثير في فني طلياني كان مصاباً بالدودة الوحيدة وذكر روسو الفيلسوف أن كاهناً كان اذا سمع صوت الارغن يتأثر حتى ليضطرب

الى مفادرة الهيكل وعلى العكس في رجل من قومه كان يستولى عليه وهو في حالة السماع ضحك عصبى يستلزم اخراجه من الكنيسة ولاحظ الطبيب المشار اليه أن الموسيقى تعدل سير الدم وتحسن حالة النفس فاذا كانت الانغام الموسيقية حادة بهجة تبرق العين وتزيد حمرة الوجه ويسرع ضرب النبض وتعو حرارة الجسد ويضرب القلب ويسهل الهضم واذا كانت الانغام الموسيقية كثيفة وبطيئة تحدث للعين غشاوة ويصفر الوجه وتقل رطوبة الجلد ويزداد تواتر الدم الى القلب ويضعف ضرب النبض ويقل التنفس ويطول

قال وتعمل الموسيقى في المجموع العضلي فيها يتحمل الجنود الشدائد والمتاعب فتتضاعف قوتهم عند ما يباشرون القتال وتؤثر أيضاً في التهييج العضلي فانك ترى أناساً يرقصون من الليل ويطيلون الرقص وما كانوا ليقوموا بهذه الرياضة لولا سماع الانغام . فالمرأة مهما بلغ من لطف مزاجها وتأثرها من أقل تعب يراها يهون عليها الرقص ساعات على صوت آلات الطرب . ثم ان الملاح والمعدن والبحرى يتغنون عند ما يقومون بأعمالهم الصعبة

يجب صاحب المزاج الدموى من الموسيقى ما أفرح وجاز على السمع وكان طبيعياً في الوضع . ويفضل السوداوى من الموسيقى الشديد القاسى العالى . ولا يجب البلغمى شيئاً من أنواع الموسيقى . أما أهل الدعة والسكون والعلماء فلا يجيدون الشعر ولا يحسنون صنعة الغناء . على ان في هذا القول نظراً لان القول بأن المزاج الفلانى لا يقبل النغم الفلانى هو ناشئ لا من المزاج فقط بل من الوراثة والمحيط والتربية .

قال الذى أخذناه عنه هذه الافكار ونقلناها الى لغتنا :

ولقد عرفت علماء لا يرتاحون للموسيقى ورأيت من لا يفضلون شيئاً عليها وشهدت من يتوفرون عليها ويعتدلون في سماعها

وضع الطبيب المنوه به ست قواعد لاستعمال الموسيقى في شفاء الامراض :  
أولها انه كلما كانت الموسيقى طبيعية وأعربت عن اللغة الطبيعية في الفكر تؤثر في النفوس كثيراً ولا سيما في نفوس من لم يتعلموا التعليم الكافى . ثانياً لما كان لسكل بلاد أنغامها الخاصة بها فان الموسيقى تؤثر في الروح كلما قربت من هذه

الانغماس . ثالثها ينبغي أن تكون الموسيقى متناسبة مع درجة تأثير الموضوع .  
رابعها ينبغي أن يحدث تأثير الموسيقى ببطء فيبدأ مع السوداوين باستعمال ألحان  
يتدرج فيها من الخفيف الى القوى ويستعمل من الالحان الشديد أمام أصحاب  
النفوس الغضبية . خامسها اختيار الآلات المستعملة للغاية التي تطلب . فصاحب  
المزاج السوداوى يرتاح لسماع الطبل والبوق ذى الانبوبتين Trombon وكذلك  
المزمار والعود يناسبان مزاجه . سادسها تطرب الموسيقى الطبقات العالية أكثر  
مما تؤثر في الطبقات النازلة

ومن رأى هذا الطبيب ان الموسيقى تشفى صاحب السويداء كما تزول بها  
الكآبة والحزن وتبعد الخوف . ولقد أجمع الفلاسفة على ان شيتين اذا عادلا  
ثالثاً يكونان متعادلين فاذا كانت الموسيقى نافعة في ازالة الكدر والسويداء  
فالكدر والسويداء هما في الحقيقة شيء واحد . فان ابقراط حدد السويداء بأنها  
الكدر والحزن . وهنا أورد صاحب المقالة حوادث من التاريخ في أوروبا ولا  
سيما في فرنسا تدل على ما تقع من الانغماس في مداواة بعض الاسقام ولا سيما  
الجنون والاختلال وداء النقطة

ثم قال ان الاسلام انتفع من تأثير الموسيقى لتحريض أشياع الحسين الشهيد  
على الجذب والتهيج وذلك بقرع الطبول المتواتر على إيقاع متساوق سريع فيردد  
الشيعة على نغم الطنبور الحاناً مقفاة حتى ينتهي الحضور بان لا يمودوا يتأثرون  
للضرب ولا للجرح . وكذلك الحال في دراويش الهند فانهم يستعملون كلمة  
واحدة ويكثرون من ترديدها فتؤدى بهم الى الجذب مصحوباً بقلّة التأثير .

وبعد أن أفاض في إيراد حوادث القدماء وأخبار عنايتهم بالموسيقى في شفاء  
بعض الامراض قال ان مراد الرابع ( ١٦٢٣ ) أثرت فيه الموسيقى فعقد النية على  
أن يبقى على اخوته الذين كان ينوى إهراق دمهم وأن فرنسيس الاول بعث الى  
سليمان الثانى بجوق من الموسيقى فلاحظ هذا أن شراسة خلقه لطفت بسماع  
ألحانهم فأسف من جراء ذلك كثيراً ولم يلبث أن طرد للحال جميع الموسيقيين من  
حضرتة . وجملة القول أن الموسيقى تؤثر في الدورة الدموية في الانسان والحيوان  
ويزيد بها حفظ الدم وينقص وتتبع هذه التقلبات تأثير تهيج الاعصاب السمعية

وان آلات الطرب والصفير ليظهر فعلها بتحسن في تشنج القلب خاصة .  
وتغيير الدم الناتج من تأثير الموسيقى يناسب تحول التنفس وان كان يتجلى ذلك  
مستقلاً عن تحول التنفس . يزيد الستركنين في تأثير التهييج السمعي في الدورة  
الدموية والكلورال على العكس يضعفه والالكحول والافيون يضعفان أيضاً  
تأثير التهييج السمعي في الدورة الدموية وتغيير الدورة الدموية تابع لارتفاع  
الصوت وشدته بل لارتفاع الجرس ونزوله. ولتغيير الدورة الدموية دخل كبير  
في ذاتية الحيوان والانسان ولاسيما في جنسية الانسان وتابعيته  
وعلى من أراد الوقوف على تأثير الموسيقى في أحد أعضاء الجسم سليماً كان  
أوسقياً أن يفرق بين العناصر التي ينبعث منها ذلك التأثير . فالهزج والحن  
والايقاع تؤثر تأثيرات مختلفة بحسب تركيبها وتلحينها  
وفي الختام نقول ان الاستشفاء بالموسيقى قديم العهد وقد ظل محتفظاً  
بمكانته العلية والعملية على حالة واحدة رغم اختلاف العصور .

## الموسيقى المغربية

مدعاة السرور ، مجلبة للنشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب مهونة  
الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل  
النفسية أصدق عامل على التحمس والتحمس ، أقوى دافع الى النهوض ، معاملة  
أنفع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعامه الضعف ، دافعة عن  
مزلق الشباب وطيش الحلوم ، فيها يتجلى العقل البشري الفعال بأشارات وأى  
إشارات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ، ولذلك تجد لها في كل  
صقع من أصقاعهم نفمة ورنة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل  
أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضميف ، وتجبر الكسير ، وتهيب  
بالمستمع الى ميدان المضاء ، وتمكن فيه أواخي الحزم والعزم ، وتطرده عن الوسوس

والهواجس . وتجعله في الذروة تشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع دينياً كان أو مدنياً ، ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص ، ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى في الغالب دخل كبير فيها يتعاملونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مغروسة في الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولاً ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الأسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والفتى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والمأهن ، والغلمانى والكاهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا في حبها ، وأجمعت كلمتهم على عموم نفعها ، والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل في ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دي ستايل انك لا تجد في سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحرائين من لا يعرف الموسيقى في ألمانيا ففي أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ما تسمع ذلك في ايطاليا الا قليلا ، والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد في الشوارع ويمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة في الغرب ، ولكن الصور التي تخرجها مختلفة وان أسمعوك في بلد ما هو من صنع غيرهم ، فتسمع في كل أمة ألحان رجال الفن في أمة أخرى وأمم الغرب مها تباعدت في المقاصد وتباينت في المصالح لا تجدها الا متفقة في تعجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم من غير تكبير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التناز مداه في صدورهم ، فليس لهم شيء أجموا على تقديمه مثل نعمة تصدر في يد صناع ، ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقي أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره . يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها ، لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيتهم ، ولانه ألف نغمت أخرى . فيه ما ذلقت له اما كانت

من مصطلح قومه ، مؤتلفة مع مناخه ومحيطه ، ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربي يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والالف . والفارسي يحب الموسيقى العربية لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم ، والمبعدات بين القلوب ، زاد طرب الجار من نعمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولندا والبلجيك واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية أكثر من غيرها لانها تترشح من الانعام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لانها ترشح من موسيقاته . وقد أتت قرون والعرب والترک متلاحجون في البلاد ، مشتدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لانها أرقاها ، وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنعمة فارسي كان ينشدني قصيدة من نظمه في الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكار ، فعل فيها فعلة فأخرجها عن كشافتها ، وسمعت مؤخراً مغنية اسبانية في مسرح الالمبيا في باريز تتغني بالاسبانية ، وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور ، فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجل ما رأته العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كان لنا في بر الشام موسيقى راقية ، فسكادت تندثر لزهد الناس في هذا الفن لانه دليل ارتقاء الامة ، والامة كانت مشغلة بنفسها ترجع القهقري ، وكان المشتغلون بهذا الفن مردولين ممتهين ، فبينما نجد الموسيقار والمنشد في الامم الاخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منها مرفهاً اذا مات مشى في جنازته العظاء — كما فعل الفرنسيين بجنازتي سان ساينس وفوريه الموسيقيين وعدوها

من المفضلين على أمتهم ومجدوها وقد سوها ، ترى مثيلهما في أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفته عاش فقيراً ، ومات خاملاً حقيراً ، وكم من نابغة في الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية أن يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يجبه وكان في مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يمد في الطبقة التي هو حري ان يمد فيها

جاء دور كان الفقهاء يمدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غنى بالاجرة<sup>(١)</sup> ويتساحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه ، وكانوا يمدونه فما يفقر صاحبه ، ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بأدبه ، ويرزق عشرات الالوف منه فاذا مات مات عن ثروة طائلة ، وخلف لاهله مجداً وغنى

ولو لم نر من نهضة الموسيقى آخراً وتشريف قدرها في مصر اليوم لسجلنا بأن هذه الأمة العربية جمعاء منحطة وأى انحطاط عن أمم الحضارة الحاضرة ولقلنا انها أمة مات شعورها في كل معنى وهي والأمة المتوحشة سواء في أوضاعها وعاداتها وأسباب هزائها وراحتها

## الاستقلال والاتكال<sup>(٢)</sup>

يطالع المستفيد مئات من كتب الفلسفة والادب وعلوم العمران فلا يعتم ان يستقل منها ما يأخذ مأخذه من العقول ، ويحدث أثراً في النفوس ، ولا عجب فقد تنصرف وجهة الألو ف الى خدمة العلم ، وبث الملكات الصحيحة فاذا فوضل بينهم ووضعت أعمالهم في ميزان النصفة ، وعلى محك الاستبصار يكثر الشائل ، ويقل الراجح . والمؤثرون في الافكار ، في كل الاعصار والامصار ، اندر من الغراب الاعصم والكبريت الأحمر ، على ان كل من بذر بذوراً طيبة لا ينفك مثلوها فواده مهما تأخر نباتها وإيتاؤها ، لعلمه بأنها ستؤتي أكلها عاجلاً أو آجلاً

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

(٢) نشرت في مجلة المنار (١٦ رجب سنة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م

إذا لاءمتها طبيعة المنبت ، وأحسنت تعهدا أيدي القامئين عليها  
وقد وقع شيء من هذا ان صح حدسي للكتاب الذي ألفه المسنيو ادمون  
ديمولان الفرنسية ساوى وعربه أحمد فتحي بك زغلول المصري المسمى « سر تقدم  
الانكايير السكسونيين » فانه أثر في الفرنسيين أثراً حسناً وسرى قول مؤلفه  
في بلاد الافرنج منذ نحو خمس سنين فترجم الى لغاتهم وتناولته ألسن الناقدين  
والمسامين ، وعاد بعض المنشئين يرون رأى صاحبه وينطقون بلسانه ، ويكتبون  
بقامه ، ودل كثير من أهل العلم على مواقع الفساد من تربيتهم ، ونقص الاستعداد  
من طاداتهم ، وأشاروا الى تخلفهم في حلبة تنازع البقاء عن جيرانهم الألمان  
والانكايير والاميركان تخلفاً يخشى معه أن يتعلمهم الجنس السكسوني فيكون  
مستقبل العالم له دون سواه

هكذا يقولون . وغير منكر ان الفرنسيين تفعموا الانسانية نفماً لا تنكره  
وكفاهم مفاداتهم بأبنائهم مراراً تخفيفاً من سلطنة الملوك ورفعاً لغشاوة جهالة  
ظلت مسدولة على أوربا قروناً ، جعلتها وراء شعوب الارض ، فخلعت ربقة  
الاستعباد ، وقررت حقوق الانسان ، وقواعد الحرية والاخاء والمساواة. ونشرت  
المعارف في الاطراف حتى ابتدلت ، واشترك في الاخذ من بحرها المحيط عامة  
الطبقات فأصبح الحراث الفرنسية يقرأ ويكتب ويفهم أكثر من بعض من  
ندعوهم بالمورين في بلادنا . وما يأخذه الآن بعض علماء الفرنسيين على أممهم  
ان هو الا من باب الاستزادة من الفضيلة ، والدعوة الى الكمال ، والسبق في  
ميدان التغلب والسيادة . نعم انه ليستنشق من غالب المكتوب رائحة الغرض ويعترض  
على بعضهم مبالغتهم في وصف أعراض الضعف حتى أوشكت الفائدة أن تضيع  
وينسب كل ما يخطونه الى التشيع والتحزب ويؤيد ذلك ان ما يكتب صادر من  
بلاد تأصل فيها الانشقاق الداخلي ، وراجت بضاعة الاحزاب ، وساد فيها تباين  
الآراء فلا يكتب الملوكي أو الكهنوتي الا ويرمى ببصره الى القديم بمجده ،  
والتليد بيكيه وينشده ، ولا يجهر الجمهوري الا ويفاخر بما تم على يديه من ارتقاء  
ونماء ، ولا ينبرى القوضوي أو العدمي أو الاشتراكي الا ويستدعي الامثلة  
ويستجيش البراهين اعلاناً بدعوته ، واستتماماً لرغبته ، ولكن فرنسا ما زالت

بفضل أساسها القديم أم المدنية ورعاية الحضارة وان تقهقرت في سياستها وأخلاقها فامرتبتها الميزة على سائر الشعوب الأوروبية خلا السكسونيين ولكن صحة الوطنية التي عرف بها مساعير أبطالها ومشاهير رجالها جعلتهم اليوم يفرطون في النصح والقدح

« استقلالهم »

وبعد فان الامم من حيث كيانها قسمان: استقلالية وائتكالية فالامة الاستقلالية هي التي ظمعت على حب الافراد يعتمد كل فرد منها على نفسه لا على حكومة ولا جمعية ولا حزب ولا عشيرة ولا أسرة

وانما رجل الدنيا وواحدتها من لا يعول في الدنيا على رجل ومثالها الشعوب الانكليزية السكسونية . والامم الاتكالية هي التي يعتمد أفرادها على مجموعها من الامة أو الدولة فيتوكأ كل فرد على غيره وأعظم مثال لها الامم الشرقية حاشا سيدتها الامة اليابانية العظيمة فان التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قائمة على أعظم هياكلها وأبنائها أبعاد المشاركة عن النشأة الاتكالية

وبديهي ان العلم وحده لا يكفي في سعادة الشعوب ما لم يقترن بالعمل ، وفرنسا وقعت مع من وقع في مثل ذلك من أمم الخليفة فزاد فيها التكالب على المصالح الهينة ، والوظائف اللينة ، فكثرت فيها الموظفون والمحامون والاطباء والمهندسون وأهل الصحافة والادب ، بحيث تعذر قبول من تخرجهم المدارس العالية باسمها فسدت في وجوه الناشئة أبواب الرزق لان معظمهم يرى السعادة أن يعيش في باريس ونحوها من المدن الخافلة ليستمتع برفاهها وأنسها ولو عاش في قل . وزهدوا في الاشتغال بالصنائع الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة وذلك غير معهود عند من كان دمه سكسونياً اذ لا يرى حطة عليه أن يحترف أية حرفة كانت مهما كان علمه واستعداده ليضمن لنفسه وذويه مرتزقا فسيحاً وعيشاً استقلالياً لباباً ، فان لم يجد ما يعمل في بلاده يغادرها ليستعمر مكاناً آخر من الكرة ، ويستوى عنده العيش بلندن أو برلين ، والعيش في زيلنده الجديدة

أو مستعمرة الرأس أو زنجبار ، وان شئت فقل في أقاصى صحارى أفريقيا حيث  
الوحوش ضارية ، والسموم لافح ، والعيش مر المذاق  
وتأييداً لذلك انقل هنا ما صرح به أحد علماء الاخلاق من الفرنسيين بهذا  
الشأن قال : « يزعمون ان شهادة العالمية عندنا باب يدخل منه الى كل سبيل ،  
وتشلك بحاملها في كل مسلك ، وهي على التحقيق لا تفتح الا ثقباً كبيراً كجهم عليه  
أصحاب الرغبات من كل صوب ، فاستغرقت الحرف الشريفة ووظائف الحكومة  
جملة ، بحيث وجب على الامة أن لا تساعد على شر ما برح يتفاقم أمره مندسبعة  
قرون ، حتى صار جرحاً نغاراً ، وضربة مبرحة . وأعنى بذلك الشرءاء الاستخدام  
والتوظف

« لا جرم ان الحركة التي بدأت طلائعها في فرنسا زمن فيليب الجميل ازعج  
أمرها على عهد لويس الرابع عشر ، فزاد الحال اشكالا على أثر عودة الملكية الى  
فرنسا ، واستيلاء أسرة بوربون على منصة الحكم وصار على عهد الجمهورية الثالثة  
الحالية أدهى وأمر . فاذا نشأ الابناء على آسال آبائهم ولم يصلح حالهم يضيعون  
مجد أسلافهم ويخربون مملكة قويت على الحوادث على حين تعدهم عدتها في  
شنتها ، ويبيدهم انقازها واسقاطها

« فالجيل الفرنسي الحاضر سيء حاله وما آله ، وهو الى الكسل والجبن أميل  
منه الى العمل والنصب ، حتى يصح أن يقال ان البلاد به أضاءت من فتانها ،  
وأمتت تسير الى فلاة فنانها ، ومن الأسف ان فرنسا التي كانت على مر العصور  
في مقدمة من يحسن الاعمال وأول مشيرة لكل نجاح هي اليوم من حيث تهذيب  
أبنائها متقهقرة عدة قرون الى الوراء . وكأن تعاليمها الآن هي عينها في القرون  
المتوسطة التي تركت ألمانيا وشأنها الى أن علا صوت جهورى من الشاعر كيتي<sup>(١)</sup>  
يبين لللمان مواقع الضعف ، ومزائق المقاتل ، ومداحض المخاطر ، ويقود الافكار  
الى الحملة على كسر القيود ، ونزع ربق الرق وتجديد جذة الشباب . ينادى يا قوم  
هؤلاء الانكليز امعنوا في حالهم ، وانسجوا على منوالهم ، فانكم واياهم سواء  
في القيم ، فما ضركم لو باريتموهم في الهمم ؟ عملكم قليل ولا تحسنونه ، وقلما

تنهضون باعبائه ، وليس لكم نصيب مما أوتوا من مميزات الواجب الشخصي والكفاءة الشخصية ، وهما دعامة القوى التي تشتد بها سواعد الملل . ولما كان كيتي يصرح بهذه الافكار كانت ألمانيا بعيدة عن معاناة التجارة مقطورة في مؤخر الشعوب ولم تمض على ذلك مئة سنة حتى استولى انصار ذلك الشاعر الكبير والمتعظون باقواله على سجون التجارة فهاج نشاطهم قلق الامة التي حذوا حذوها . وان الانكاز لينظرون اليوم نظر المرتجف الى انبساط ظل النفوذ الالمانى بهذه السرعة والقوة ويزعمون انه لا بد من أن تخلف طوابع البرد الجرمانية الطوابع الانكازية قريباً .

« كل هذا نتيجة تغير التربية وانتشار المعارف بين الافراد وكثرة الكفاءات في كل فروع العمل . فمن العقل والحالة هذه ان يتدرع الفرنسيين بسلاح من العمل مفيد ، ويعتاضوا من الركوب على متن عمياء بالجرى في طريق جديد من اتقان المبادئ الصحيحة والاخلاق الناضجة .

« من رعاة الفرنسيين أن يمتقدوا علو كعبهم في كل منحنى ومنزع . ولو ذهب أحدهم الى ألمانيا ودرس أحوالها عن أُمم ، لرأى شعباً كان يشكو مما يشكو منه ، داء أصيب به زمناً فشفى نفسه من أوصابه . يرى السكسونية مجسمة بأبهي مظاهرها فيقدس « كارلايل »<sup>(١)</sup> ظهيرها ونصيرها ، ويقيس حاله بالانكاز على أنهم سباق غايات وأصحاب آيات بينات . ثم اذا قضى من تينات المملكيتين لبانته ، وعرف بالنسبة اليها حالته ، يركب البحر المحيط الاثلاثيكي ليتبصر فيما تورثه جدد الفضائل في هذا القرن الحديث وينجلي له الفرق بين رغائبه ورغائب الاميركان .

« لفرنسا نظارة للمعارف العمومية ، ولا ميركا مدرسة للتربية ، فالاولى تعلم والثانية تربي . الاولى تلقن أبناءها كلمات يحفظونها ، والثانية تعلم مبادئ عيسيرين عليها . تعد فرنسا أدمغة لحفظ قانون وتبهيء أميركا أذرعاً للعمل ، الاميركان رجال عمل ، والفرنسيين ليسوا كذلك . يغرس الاميركان في نفوس ناشئتهم شهامة الارادة التي لا تجدى أجل الهبات الخلقية بدونها ، ولا يكون العلم نفسه الا

(١) كارلايل Carlyle كاتب اسكتلندي شهير مات سنة ١٨٨١

عظا من النفع مع فقدها ، وهذا هو القانون الذي سنه لهم فيلسوفهم اميرسون (١) تلميذ هيكل الالماني (٢) القائل في فلسفته : ان الحياة ليست شغلا عقلياً ، ولا مناقشة ومهاوشة ، بل الحياة انما هي العمل . واقد علق في أعلى باب كل مدرسة بأمر كما شعار معناه : ان تهذيب الخلق أسمى غاية المدرسة ، وعلى الشبان أن يحسنوا معرفة الحياة بارادة ثابتة . »

ثم توسع الكاتب في بيان نقص تربية أبناء وطنه وعاد يقول :  
« يازمنا رجال مهذبون لا رجال متعلمون ، وفي فرنسا طبقتان من المدارس أولاهما للصفار وثانيتها للكبار ، وبعبارة أجلى مدارس الصناعات ومدارس المفكرين ، أما حسن التربية الانكليزية السكسونية ورجحانها على التربية الفرنسية ، فهي قائمة فيما أوتيه بعضهم من الصفات الشخصية مثل المروءة وحسن الخلق والحصافة والبداهة والجرأة والاقدام على المشروعات والاكتشاف والافتتاح والمخاطر . فبدلاً من أن تنمى فرنسا في نفوس أبنائها هذه الصفات تفرس فيهم ملكات حب التآلف والاجتماع . تبث فيهم التأثر بدل المروءة . وتبث فيهم الخشية من أقوال الناس فيشاكل المرء الجمهور بأقواله وأفعاله بدل تنشئتهم على خلق يبق فيه الانسان مستقلاً بنفسه . وبدل الحصافة التي يتأتى بها للمرء ايجاد الاشياء بذاته تقوى فيه ملكة الذاكرة التي تعيد عليه ذكر الاشياء التي يحفظها مما عثر عليها غيره بالتجارب ، وعوضاً عن البداهة التي يتمكن بها المرء من تطبيق ما أوجده بنفسه تبث فيه الثقة فيصبح عرضة لاغراض حكامه . وبدل الجرأة تبث فيه الحذر وبدل الاقدام على المشروعات والفتوح والاستنفاض ( فتح البلاد ) تبث فيه ملكة الاقتصاد والسلم وحب السكن . وبدلاً من اقتحام المخاطر تحسن له الرضى بالاستخدام . »

ثم أجمل الكلام هنا على الفلاحين والصناع والتجار والعملة من مجموع الامة الفرنسية و انتقل الى الخيار من قومه وعنى بهم العلماء والفلاسفة وأهل البصر فقال مستنداً الى أقوال العلماء :

(١) اميرسون Emerson فيلسوف أميركي مات سنة ١٨٨٢

(٢) هيكل Hegel فيلسوف ألماني مات سنة ١٨٣٥

« ان دماغ الجنس السكسونى متمدن ومحدود، وذكاءه تحليلي وجنسه جنس العمل والكد وعلى عكسه دماغ الجنس الفرنساوي فانه موسع وذكاؤه تأليفى وهو خيالى يعشق التصورات وبالجملة يعنى الجنس الاول ابدأً بالحقائق على حين يفضل الثانى الافكار والخواطر، يجيد السكسونى فى الغالب القيام على الاعمال المادية وبعض الفرنسيين يحرزون قصب السبق فى ميادين الذكاء المتسمة الاطراف « ألا وان قيمة الجنس السكسونى بمجموعه وقيمة الجنس الفرنساوى بخياره فالفرنسى المتوسط لا يساوى الانكليزى المتوسط والفرنسى العالى يساوى أكثر من انكليزى عال ولكن الخيار من الفرنسيين لا يشغلون المكانة التى يستحقونها لانهم مغلوبون للاخلاق الحالية لم يستوفوا شروط النفع ولا أتموا أدوات التهذيب

وأصبح طريقة يجب على فرنسا سلوكها تحسين تربية خيارها وتربية أفرادها ومزج الخاصتين السكسونية والفرنسية وتطبيق تربية جمهور الانكيز على تربية خيار الفرنسيين لياتى الغد وفرنسا من وراء هذه التربية شعب صغير كالشعب الأثينى يهب لها فاتحين ذوى أفهام، ورجالا صحاح الاحلام، يساوون الجيوش، ويوازنون كل عدد وعدة، ويخدمون أمتهم خدمة ارخميدس<sup>(١)</sup> وينقذون وطنهم انقاذ تيمستوكس<sup>(٢)</sup> . «

« اتكالنا »

بمثل هذا اللسان يخاطب الكاتب الفرنساوى أمته ويقرعها تقرعاً أمر من الصاب والعلقم ، لتستفيق من غشية تخشى مغبتها وتفلت من الوقوع فى مخالب أسود السكسون لتلا يكون حظها فى الوجود حظ الامم البائدة كالرومان واليونان والفرس والعرب . وما القصد من اراد كلامه بنصه الا ليحصل التمثيل بيننا وبين أمة نشابها فى الاعراض وان كانت أعلى منا جوهرأ .

(١) ارخميدس Archimède أحد مشاهير المهندسين القدماء ولد فى سيراكوس احدى مدائن صقلية حوالى سنة ٢٨٧ ق ٠ م ومات سنة ٢١٢ وحاصر الرومان وطنه فدافع عنه ثلاث سنين بقوة بنايات حيلية أو ميكانيكية

(٢) تيمستوكس Themistocle قائد أثينى شهر ٥٣٥ - ٤١٠ ق ٠ م

ولعله يخيل لبعض سكان هذه الديار ان الفرنسيين مثلهم في الانحطاط ، وأن لهم بهم قدوة حسنة وأعظم سواي ، ولكن شتان بين حالنا وحالهم ، ورجالنا ورجالهم ، وحضارتنا وحضارتهم . أمة تشخص الداء وتفكر في وصف الدواء أو تشعر بنقصها وتسعى الى كمالها . وأمة موقنة بأن داءها عين الصحة لا بأس عليها ولا خشية من ناحية حياتها ، يرضيها نقصها فلا تريد استبدال غيره به وكل من محضها النصح رتمه بانحلال عقدة الوطنية ، والمروق من عهد الحمية وصدق التابعة

لاجرم ان الرجل الفرنسي الراغب في الاستخدام ، لا يشبه الرجل المصري أو السوري أو العراقي مثلاً فان الاول يستعد ليحسن الاضطلاع بما يوسد اليه من أمر أمته ومعظم هؤلاء على نقص في المدارك وانحطاط في الفضيلة يطمحون الى السعادة والسيادة بلا سابق معرفة سوى أو اصر القربى أو التقرب ، أو أو اخی المؤاخاة والتزلف أو وشائج الدرهم والدينار ولقد أصبح من الرأي المقرر بين الناس أن كل من ليس له علاقة بالحكام كعضو أصيب بالآكلة لاحيلة فيه الا بالبر أو الموت ، بيد انه لا تثريب على الفقير اذا رشح ابنه لأي خدمة كانت ليرتفع بها من الدنيا ، مادامت البلاد صفراً من أصناف المعاش الذي يزعج صاحبه عن العيش الاتكالي ويورده موارد الاستقلال ، بل اللوم كل اللوم على رجل يعد من نواصي أهل وطنه وعليتهم وله من العقار والقري ما يسد عوزة وعوز مئات معه وهو على ماله من الاعتبارين جيله وقبيله يسف الى الاستخدام في وظيفة ليتباهى بها أمام العدو والصدیق أعرف رجلا في إحدى مدن الشام الحافلة له عراقة في محتمده ، وأصالة بين قومه وسعة من دنياه ، وتراه مع هذا يصرف نهاره وليله في نيل الزلفى من الامراء كبتاً لخصومه ، فيبذل كل عام في هذا السبيل من الصفراء والبيضاء ، ما يكفى لالة ألف نسمة من أصحاب البأساء ، وكلما طعن في السن يزداد غلواً في مبادئه وأصراراً على نكابة أعاديه ، وهو دائماً أجول من قطرب واشغل من ذات النحيين ، ومساعيه أبداً مخفقة ، وآماله مخيبة . وهكذا حال خصمه اللدود له مال وبنون ومقام بين أهل حيه كريم ولكن لا يهدأ له بال الا بالجلوس على

أرائك الحكم ، ومقاعد التصدر ، يتلمس لبنيه اذناً بملازمة الدواوين . مزاجمة  
لاولاد الفقراء ليستأثروا بعد بالزواتب دونهم ، وينالوا المعالي بنفوذ والدهم  
عفواً صفواً

ولو عقلاً لاستعاض عن التلهي بهذه السفاسف بأدارة شؤون مزارعها الواسعة  
وتحسين طرقها وتممية غلاتها وثمراتها ولكن هو حب الرئاسة يستلب الالباب  
وفي الامثال « يا حبيذا الامارة ولو على الحجارة »

ولطالما سمعنا أن فلانا غادر سكنه ومسكنه ، تاركا دخلا يكفيه وعياله لأن  
يعيش عيش الاستقلال فيوكل به من يسرق نصفه لينتظم في سلك الموظفين  
ويأخذ من استخدامه ما يوازي النصف الذي فقده بغيابه ويفتدى من دماء  
الامة سحتاً بحتاً وحراماً محضاً ليقال عنه انه من الموظفين ويخاطب بالفضيلة  
والسعادة ثم اذا كثر سواد أقرانه يقضى حياته قلق الضمير ، وربما أتفق كل ما  
يملكه من تراث آباءه ليرتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ويسبق من سبقوه  
أو هم لاحقوه . وما الموظفون في الحكومات الاستبدادية براغبين أن يعدوا  
من ممثليها ليحموا ما يملكونه من اعتداء المعتدى وتعسف الظالم كما هي دعواهم  
بل ليكونوا جلادين في تلك الدولة ويسوغ لهم أتيان كل منكر ارادوه بلا وازع  
ولا رادع .

ألا وان الامثال لكثيرة على من آثروا العيش الاتكالي ورضوا بالاسفاف  
الى الدنيا كما أصحاب الاوقاف ممن يرضون بالكفاف من العيش ويقنعون بدرهميات  
تأتيهم من وراء أجدادهم ، أضف الى زمرتهم من حبسوا أنفسهم في الصوامع  
والجوامع مثل المدرس والمؤذن والخطيب ممن يكتفون بالانزاع من المشاهرات  
يقبضونها ببذل ماء الحيا ، ويصرفون لاجلها من الاوقات ملو صرفوه في بيع  
الثرى لاثروا به ، ثم يرقبون ما يأتيهم من أجور الطلاق والمناكحات ويتلمظون  
بطعام الولاة والوضائم ويقنعون بتقبيل الايدي ومصافحة المرئيين . وكذلك  
حال الرهبان والقسيسين وسائر من يتصرف باسم الدين ، وهم فائضون عن الحاجة  
فكلهم يتقربون بالفاقة الى مولاهم ويستوكفون أكف الصدقات ، وينتظرون  
قيم الصلوات والدعوات ، وهذا الخلق مستحکم من المسلمين بحكم التربية أكثر  
منه بغيرهم من الطوائف

اليك شرح الاتكالم الجسم الذي شيكا منه كبار الفرنسيس ، وهو عندنا في أرقى درجاته ولا نشكو ولا نتبرم ، وأما شكواهم من كثرة المرشحين للجراف الأديبة فيقابلة شكوانا من قلمهم اذا لم نقل من فقدمهم - يمولنا الصحفي العلامة ، والطابع الماهر ، والطبيب النطاسي ، والمحامي الحاذق ، والاقتصادي المدرب ، والرياضي المنجذ ، والطبيعي المتعقل ، والمهندس الفطن ، والسائح الثابت ، والممثل الفاضل ، ممن تبرم بكثرتهم في فرنسا صاحب سر تقدم الانكليز السكسونيين ، ولكننا نحن في غنية عن هذا العدد الدثر من الحاجب والكاتب والمصاحب ، والجاسوس والمسجل ، والرئيس والمرءوس ، بل وألوف مؤلفة من اصحاب الرواتب بلا عمل الدين يأكلون مال الأمة بالباطل ، ويعيشون على طاقها حملا ثقيلًا ، فلاهم بوجودهم ينفعونها ، ولاهم عن مفرها غافلون  
أين حال الأغنياء والأعيان المتهافتين على المناصب في بلادنا من أهل تلك الطبقة في انكاثرا مثلا حيث الحكومة تخطبهم ، والشعب يطلبهم ، وشتان بين خاطب ومخطوب

كتب أحد سرة بريطانيا الى صديق له يقول : دع الناس يطلبون الارزاق من الدولة فانا لا أنحو منجهم لانني أقدر أن أكون غنياً بتسامي عن الدنيا ، ولا أرتضى أن أشين خدمتي لوطني بفوائد ذاتية فاني أعمل في إستاني بيدي وأجزىء بالقليل من النفقة عن الكثير

وهو كما رأيت كلام من يوقن ان الامارة ليست بمذهب طبيعي للمعاش بل كلام من ارتقى وتهذب وعلم علم اليقين أن الحكومات ليست الا خادمة للأمم وأن الشعب في غنية عنها ولا غنى لها عنه ، فتي يكون مثل هذا القول لسان حال أعيان بلادنا حتى لا يكونوا على أمتهم أضر من العث في الصوف والدودة في الكرمة ، ولكن المشاركة انغمسوا في مضال الجهالة منذ قرون حتى أصبحوا يقدسون حكامهم ومن انتسب اليهم وغالوا في تعظيمهم الى أن بلغوا بهم منازل الالهية ، وأنشأوا يستحلون لهم المحارم ، ويطلقون عليهم ألقاب الربوبية وما برح الناس يبحثون عن داء المجتمع الانساني ، ويصفون له الأدوية وهو لا يزداد الا تفشيا ، وقد أعضل ما يسميه الغربيون بالمسألة الاجتماعية حتى حار

في طها رجال العلم والسياسة وأصبحت شغلا شاعرا لاهل المدارك السامية .  
ولذا قال صاحب سر تقدم الانكليز السكسون : ليست المسألة الاجتماعية عبارة  
عن مساعدة الافراد كما أن مسألة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الأدوية والمقابر  
اذ ليست المساعدة أو المقابر من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا  
ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية  
الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل فرد منهم أن يقوم بأمر نفسه ، وأن يرتقى  
بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كلسامة الأخروية تقوم بكل واحد على حدته  
وعلى كل واحد أن يسمى اليها ، وقولي هذا لا يروق في أعين الذين اتخذوا  
السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الأمة ، وضعف مدارك  
الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها  
القاصرين حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء .

ونحن لو استشهدنا التاريخ لرأينا اجدادنا كانوا في منازع حياتهم أشبهه  
بالجنس السكسوني لا يعرفون مع بسطة الجاه واتساع الروة والملك الا النشأة  
الاستقلالية لبعيد في كل أطوارهم عن السرف والترف فقد اشتهر من سيرة  
الصديق الأكبر رضى الله عنه انه كان يقدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع  
وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما رعت له وكان  
يحب للحى أغنامهم . فلما يبيع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحب لنا منائح (١)  
دارنا فسمعها فقال : بلى لعمري لا أحبها لكم وانى لارجو أن لا يغير بي  
ما دخلت فيه . فكان يحب لهم . ثم قال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما  
يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شأنهم فترك التجارة وقيل أراد الصحابة علي  
تركها وانفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم فكان الذي فرضوا له  
في كل سنة ستة آلاف درهم وقيل فرضوا له ما يكفيه فلما حضرته الوفاة أوصى  
أن تباع أرض له ويصرف ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين .

ولما فرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء قال للمسلمين انى كنت امرأ

(١) منحة الناقة جعل له وبرها ولبنها وولدها وهي المنحة والمنيحة

تاجراً يعني الله عيالي بتجارتى وقد شفقتمنى بأمركم هذا فما ترون انه يحل لى فى هذا المال ، وعلى ساكت فأكثر القوم فقال: ماتقول يا على ؟ فقال ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فأخذ عمر قوته . وان لنا فى غير هذين الامامين من رجال سلفنا الصالح الاسوة الحسنة فى فضيلة الاستقلال وترك الاتكال ولنا الاسوة فى الامم الحية لعهدنا التى نرى آثارها باهتين شاخصين ، فالعبر بين أيدينا ومن ورائنا وعن أيماننا وشمائلنا ولكننا لا نعتبر

## الهجرة

أربعة أحوال تعمل فى تكثير سواد الامم : الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر البلاد وتقل الامم . ومحور الهجرة يدور فى الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصاً أيام كانت الجماعات فى القرون الاولى والوسطى من أكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذية الجماعات الكبرى منطقة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة فى البر والبحر يحدث مخاوف هائلة ويشير مناوشات وثورات . وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة أو متعذرة ويهلك سكان المدن جوعاً . وتحتكر المدن الحبوب فى أماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة أما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرين ولا يجدون غير الهجرة باباً لنجاتهم بارواحهم وأرواح ذريتهم وهذا مادعا الى اقفار كثير من الاصقاع فى الشرق والغرب لان من ولد من الاسر المهاجرة لم يواز عدد من فقدتهم البلاد بهجرتهم لها (١)

جاءت ازمان على البشر كان الشرق أو أفريقية وآسيا أحر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من أبنائها ليكونوا جنداً فى الجيش الرومانى ورومية كانت حاكمة على معظم أصقاع أوروبا وجزء كبير جداً من آسيا وأفريقية وسلطانها فوق

(١) كتاب الشعوب والاخلاق تأليف هنرى سكريتان

كل ساطان وماملوك تلك الايام الا اقبال يخضعون لصولجان رومية وقد كنت ترى أناساً من بلاد الشام في كل مكان كاتراهم الا ان وكان منهم في جيش جرمانيكوس القائد الروماني عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين .

قال سكريتان : ان القرون الوسطى باقطاعها ومما كان فيها من اللصوصية والاخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع الالهجات وحكومة الجماعات Polyarckie والاشعث من الحياة والتشتت السياسي الذي هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعيني بقلة الرجال وطول افقار البلاد فاقفر العالم الروماني وظل الشعب زمناً على نسق واحد ثم زاد بانشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التي تسهت أسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدي العاملة التي أنشأتها . ومن المدن فتبعث أبداً حركة تنظيم القوة العامة . فصاحب الاملاك يعيش بما تدر عليه املاكه على حين تضطر المدن أن تطلب ذلك من التجارة وأن تضمن حقوقها في البلاد القاصية بتأمين السبل والتجارة .

قال وما المصانع العظمى التي قامت في القرن الثالث عشر للميلاد وما تلك البيع والمعابد الا اثر من آثار زيادة السكان في أوروبا وان الناس أصبحوا يهتمون لأمور أخرى غير حفظ حياتهم مباشرة . والسكان من العوامل الضرورية في التبدلات السياسية . وعندنا ان الشعب هو أرض التاريخ الذي تنبت فيه الأوضاع والافكار . ولما نمت النفوس منذ القرن الحادي عشر في حمى أسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة أمام الاقطاعات وانتهى التماسك السياسي بقيام المدنية الحديثة وأدى نمو السكان نمواً عاماً بقاعدة الانتخاب الطبيعي أي الافضل والاحسن الى شكل جديد في الحياة وتحسين الاخلاق وتدميتها وكثرة السكان شرط في قيام المدنيات العليا وفي تأسيس الاملاك العظمى وهي التي تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة .

نعم كثرة السكان شرط في الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدي الى قلة سريعة في المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية . والمدن لا تقوم الا في بعض ادوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من أهم العوامل في المدنيات

الكبرى قد يكون منها قلة عدد الموالييد وهذه القاعدة تجرى في كل مكان اليوم في ألمانيا وإيطاليا وانكرا وقد كانت فرنسا أول من وصلت الى هذا المعدل فتعدلت وفياتها مع ولاداتها مع أن فرنسا كان عدد سكانها في أواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانكرا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وإيطاليا عشرة وألمانيا كلها مع النمسا وتوابها اثنين وعشرين مليوناً وروسيا في أوروبا اثني عشر مليوناً وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى أميركا في القرون الثلاثة الأخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زيادة بلاد الانكليز والجرمانيين كانت أهم وأعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة وأربعين مليوناً وفرنسا نحو أربعين مليوناً وألمانيا خمسة وستين مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليوناً وإيطاليا خمسة وثلاثين مليوناً واسبانيا ثمانية عشر مليوناً فمنها ما تضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين .

وقد نفي سكريتان أن تكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال : ان الروس باقرارهم أنفسهم من أعظم الموغلين في المفاسد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الأرياف عندهم . والسبب في قلة الموالييد هو في الحقيقة ارادة الرفاهية . الولادة لا تشكو من الفقر ولا من حرية الفكر ولا من حرية الاخلاق وما خرابها آت الا من كثرة الحذر الذي هو ابن الطمع .

\*\*\*

عرف السوري منذ القديم بحب الطعنة للكسب واحراز المجد والفينيقيون أو سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحضارة وربابنة البحار في سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية في أقصى شمالي أوروبا وانشئوا المكاتب التجارية في جنوبي القارة الأوربية وشمالي افريقية وكان من أخلاقهم ما يشبه هذه الاعمال والهجرات ولا سيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا في مقدمة الفاتحين للاندلس في الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح في الشرق وأوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضمروا الجزية على صاحبها . وبعد فان فتن التتار والصليبيين أضعفت حال البلاد وقلت سكانها خصوصاً

على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة في الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان في أولادها بل تندر النضرة في وجوه أهلها ولم تقصر الحوادث السماوية في انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والايوبئة تحصد أهلها بالالوف وما بقي منهم يهلكه الظلم ، وقلة العلم .

حتى اذا جاء القرن الماضي ونشر خط كاخانة ووضعت التنظيمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية في طور أحبت فيه احتذاء مثال الغربيين في ادارتها وضعفت سلطة العمال بمض الشيء وقوي ارتباطهم بالمركز خصوصاً بعد انشاء الاسلاك البرقية التي سهلت وصول الشكاوى الى العاصمة بعض التسهيل وأخذ الفلاح يأمن على زرعه وضرعه بالنسبة للماضي والتاجر في المدن قد تنجو من البوائق متاجره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ اختلاط أهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية في المدن والقرى . بعد كل هذا عادت النفوس تنمو خصوصاً في لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع أعلام الامن في ربوعه وأصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نفوسه .

واذا كانت زراعة لبنان ضئيفة تعد بين الزراعات في الدرجة الثالثة أو الرابعة لم يقم بمعاش سكانه فاخذوا يهاجرون أولاً الى البلاد القريبة منهم ولما تنوفات الانباء عن نجاح جماعة من تجار بيت لحم في أميركا سمعت الهمة ببعضهم الى السير على آثار من سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بأفريقية وأوروبا وأميركا بالبوأخر فوفق بعض من هاجروا من لبنان الى جمع جانب من المال فاشتهر بين قومهم نجاحهم وأخذ يتبعهم في خططهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان أهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش في الجملة هم الناهضون لهجرة بلادهم . ولم تمض بضعة سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المخصبة من أرض الشام مثل وادي الاردن ووادي العاصي وسهل البقاع وسهل حوران فخارها جبل لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وجبال عكا وجبال اللكام وجبال الخليل واشترك السهل والوعر في الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقدس كما نال أحقر قرية .

واشتهر في الأكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دوراً

على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك واقاموا العقارات وأخذوا بحظ من الرفاهية ونسى الناس أو لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فما عتمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراجع اليانا الا وقد أصبح المهاجرون زهاء أربعمائة ألف رجل على أقل تقدير من السكان معهما بالغنا في تقديرهم وعددنا في جملتهم بعض البوادي لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين وقدر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائة وسبعين ألفاً وغالى بعضهم فقدرهم بزهاء مليون ويمكن أن يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثر الحادث عنه أى باضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا في بلادهم من أزواجهم أو تزوج العزب منهم في السن الممينة للزواج في هذه البلاد .

خسرت البلاد من وجهين في الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتفيعين سنين عن أوطانهم وعن تعطيلهم عن التناسل وربحت مما حملوه الى الشام من النقود والتهذيب الغربي ولكن الخسارة أعظم بدليل أن الثروة هي العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وأن التهذيب الذي حملوه ناقص لانه علمهم أموراً رفعت من شممهم فلم يعد يستطيع المهاجر أن يقيم في قرينته اذا آب اليها بعد تغيبه عنها بضع سنين اذ يرى الفرق محسوساً بين ما شاهد في بلاد غيره وعهد في بلاده ويتأفف من عمله الصغير في الزراعة أو الصناعات الضعيفة فلا يلبث أن يمود أدراجه الى أميركا ويختار الموت هناك على البقاء في أرض ذلة وقلة .

ولذا لا تعجب اذا رأيت مئات من الدور الفخمة التي عمرت بدراهم أميركا في هذه الديار خالية من سكانها يلعب فيها الجرد والقار ولا من يقطنها لان بنيتهم عادوا فرحوا اما طلباً لثروة غير التي نالوها وصرفوها كلها في انشاء دورهم واما لضيق صدر ناهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل .

قال قنصل فرنسا في تقريره الأخير على بلاد الجليل : ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالأجور التي يؤدونها لشركات الملاحاة ولكنهم يضررون البلاد في ارتقائها الاقتصادي اذ يحرمونها من الايدي العاملة وقد نجحوا بأن أسسوا في البلاد التي هاجروا اليها ( أميركا الشمالية والجنوبية وأستراليا وأفريقية الجنوبية أو مصر )

مستعمرات مهمة للغاية وكثير ممن غادروا بلادهم حفاة لا يملكون أجرة المركب الذى يقلهم وهم فى الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير فى جيوبهم أو الاوراق المالية . وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغربية وأنشأوا يستخدمونها فى بيوتهم وهم يبتاعون الاراضى وينشئون الزراعات الكبرى وأكثر العائدين منهم على ما أظن هم اللبنانيون والبقاعيون .

قال : وأما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة مهاد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لا ينفذ غباره الا بالاقطاع عن البلاد وحباً بالارباح السهلة واقتداء بمواطنيهم المقتنين وجذب البلاد الجديدة لهم . وبيننا نرى الوطنيين ولا سيما من سرورية يهاجرون نرى الاجانب يهاجرون اليها ولا سيما فى فلسطين ( أى الصهيونيين ) اه .

وبعد فقد كانت الهجرة مقصورة بادىء بدء على المسيحيين فأخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف فى السنين الاربع الاخيرة عند ما طبقت الحكومة قانون الجندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده فى العشرين والخامسة والعشرين فأنشأ يرحله اليوم فى الخامسة عشرة بل وفى الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله النقدي قبل أن تصيبه القرعة وبمدآن تفاقم شر الهجرة فى العهد الاخير اذ اذت الحكومة أن تمنع الشبان من السفر فكان ذلك مورد عيش جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائم مقامين ورجال الشرطة وكثرت ممارسة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا وجوها وأخرجوا منها أعزة أهلها وسهوا لهم سبل الهجرة ووجد حتى الفقير المعدم من يقرضه على أن يوفيه من عمله فى ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فاصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بعشر ليرات وزاد الصادر وقل الوارد . وكلما أمل المؤمنون أن تهدأ أحوال البلاد تعقدت مشاكلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد أخبار السوء فتأخر عن العودة اليها أبناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بأذى سبب لنزع هذا الخلل فى حياة البلاد من

أصوله بل ان النوائب الاخيرة التي صادف وقوعها في عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذا اضطرت الحكومة أن تزيد الضرائب والمشور والرسوم فضعفت الزراعة وأكثر من ثلاثة أرباع هذه الامة تعيش من أرضها وارتقت أجره المامل الى أعلى من منسوبها فاصبح في بعض الاصقاع الزراعية من المتمذر القيام باعمال الزراعة على ما ينبغي لصاحب ملك ومزرعة لأنه اذا أعطى العامل في اليوم ثلاثة أرباع الريال أو الريال لا يبقى له في آخر السنة ما يوازي نصف أيجار أرضه ولولا أن بعض البلاد التي أعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما جلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالخصادة والدراسة والحراثة والذراية والطحانة لأست زراعتها باثرة ولوجرى أهل هذا القطر على سنة أهل أطنة (أذنة) في قلبية من آسيا الصغرى وأكثروا من الأدوات الحديثة ثم لهم الغنى وعوضوا ما فاتهم من عمل العاملين ولعاد جديدها خصيباً ونالوا من أسباب الثروة حظاً عجيبياً .

اذا قدرنا ثروة السوريين في مصر والسودان وأميركا وكندا وأستراليا والترنسفال ومدغسكار والسنغال بمئة مليون جنيه (١) وهو أقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون في مصر فقط وفرضنا أن نصف المهاجرين أحبوا العودة الى أصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من النقود وما زكنوه وتعلموه من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة تفتح بالطبع موارد اقتصادية جديدة في البلاد اذا صحت قبل كل شيء نية الحكومة على توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من المال والضرب على أيدي الجاهلين والمرتشين منهم .

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الادارى تستميل المهاجرين الى العودة وتحجب اليهم بلادهم التي يؤثرون أن يكون لهم في ربوعها من المغنم نصف ما يتمتعون به في ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد بضع سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مهما كان مقدارها .

\* \* \*

(١) لا تقل في الحقيقة ثروة المهاجرين من الشاميين عن ثلثمائة مليون ليرة ذهب

وبعد فيكاد يكون في درجة الثبوت ان البشر نما عددهم منذ عرف التاريخ على الرغم مما نالهم من الطوارئ التي ذكرها التاريخ من مثل الحروب والأوبئة أو الاسباب الاخرى التي تنقر النمو وتقلل التناسل . ومع هذا فقد كان النسل كثيراً في أوروبا منذ بضعة قرون وان كان يكثر موت الاولاد في الطفولية أكثر من اليوم وتلهم الاديار جانباً من الرجال والنساء يتعطلون عن التناسل وليس ترك الارياف والقرى وزول الحواضر والمدن مقصوداً على بلد خاص أو صقع معين بل هو ظاهر في كل مكان في البلاد الاوربية القديمة مثل سويسرا والمانيا وفرنسا وانكلترا ونروج والبلجيك وهولاندا ظهوره في البلاد التي أخذ سكانها بالنمو مثل الولايات المتحدة وكندا واوستراليا فترك الارياف عام يشترك فيه جميع الاجناس : السلتيون كاللاتين ، والسلافيون كالروس والبلغاريين ، والسكسونيون كالانكليز ولا يظهر أن للاوضاع السياسية والاجتماعية دخلا فيه وما من حكومة من الحكومات خالية منه حتى أن طريقة تقسيم الاملاك لا تمسك الانسان في الحقول وليس في قوانين الموارث ما يظهر انه أسمى من غيره فقد خضعت اسلطان الهجرة حتى البلاد المتماسكة الاجزاء مثل فرنسا وانكلترا والمجر وروسيا والولايات المتحدة واوستراليا والارجنتين فان أصقاعاً كبيرة استعمرت منذ زمن طويل في الولايات المتحدة ولاسيا واليات انكلترا الجديدة قد خضعت لهذا النظام فترك أهلها قراهم لينزلوا الحواضر يسكنونها فنمت بذلك المدن نمواً هائلاً بالنسبة لمجموع البلاد فقد بلغ سكان مدينة بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية مليوناً وثلثمائة الف في حين بلغ سكان جميع هذه البلاد ستة ملايين نسمة تدخل فيها العاصمة ومساحة أراضي الارجنتين خمسة أضعاف مساحة فرنسا وهكذا تجد النمو بادياً في مدن الولايات المتحدة كنيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وسان لوي وسنسيناتي وبوسطن وسان فرانسيسكو وستل وأورليان الجديدة كما هو باد في ملبورن وسدني من عواصم أستراليا

هذا ما قاله أحد الاقتصاديين في جريدة الاقتصاد وعقب عليه بقوله تحمل رؤوس أموال كثيرة من العالم القديم أي من أوروبا تستثمر في العالم الجديد فالمليون من الفرنكات يستثمر في أرض فرنسا فيهود برمج سنوي يختلف بين ثلثمائة

أو مائتي ألف فرنك اذا حسبنا جميع الايدي التي تتناوله فنرجح منه على حين لو جرت تنمية هذا المليون في البلاد الاجنبية لا تعود من الفائدة بأكثر من ٤٠ الى ٤٥ ألف فرنك .

ان من يهاجر الى القاصية كمن يتركون قراهم ليستوطنوا المدن المجاورة يبحثون عن رفاهية أسمى مما تمتعوا به ويظنون بأنهم يحققون أمانهم في النجاح باننتقالهم الى محيط يصرفون فيه قواهم بما يعود عليهم بالنفع أكثر ومعنى ذلك يدور على البحث عن أجرة أكثر وهذا هو الباعث الاول على هذه النقلة بل الباعث الوحيد فالاجور هي العامل الوحيد الذي يدعو الناس الى التنقل في عصرنا أما حب الهواء الجيد والحياة الاجتماعية ولطف الاخلاق وسلاسة العمل فليس لها محل من الاعراب في جملة هذه الحامل

ترى العامل في الولايات المتحدة وأستراليا يتنقل من المدن الى القرى وبالعكس لان الاجور واحدة في الزراعة والصناعة وكلها رابحة والقاعدة العامة في ذلك ان المدن والقرى تمسك السكان متى كانت أجورهم مضمونة وحالتهم مأمونة فقد قل المهاجرون من المانيا منذ كثرت صناعاتها ونمت بحريتها وتجارتها ويقل المهاجرون من المجر وروسيا وايطاليا متى حسنت حالة الزراعة فيها وانتظمت أسباب التملك وجودت الأسباب الاقتصادية أي الاجور فاذا كانت البلاد الجديدة تستميل اليها المهاجرين بمئات الالوف بل بالملايين فذلك لانها توزع أجوراً عالية وأوربا وانكلترا وفرنسا واسبانيا وايطاليا وروسيا والمجر تبقى اليد العاملة في الحقول اذا ارتفع سعر الاجور الزراعية وذلك لا يكون الا بتقويم الزراعة وتكثير المحاصيل والمواشي وتكثير الايراد ولو قلت أسمار الحاصلات

ان هولاندة التي تعتبر مجموعها أرضاً فقيرة لان في استثمارها صعوبة قدكثر سكانها اليوم كثرة زائدة بفضل عملهم بحيث حق على الهولانديين ما قاله فرنكلين « بالقرب من رغيف الخبز يولد رجل » والمرء كلما دفمته الحاجة يحسن الاحتمال على المعاش وأميركا وأستراليا الى اليوم لم تستثمر من أرضها خيراتها كلها بل ان خصبها هو المساعد فقط على العكس في غربي أوربا فان العمل هو الذي يستثمرها وبعد فان المجتمعات لا تتحرك بالنظريات بل بالعمليات وكل نظرية تخالف المصالح

الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى في العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

## الهجرة الى مصر (١)

اذا كان أصلي من تراب فكأنها بلادى وكل العالمين أقاربي  
دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها  
ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هي المنزل العام يجلس أهله في أى ناحية  
منه أحبوها وراقتم . ويتنقلون في بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها  
وحزنها ، وبحرها وبرها ، على حسب ما تقضى أحوال الصحة ، وطبائع الاجسام ،  
وخواص النفوس .

فقد هاجر النينقيون قديماً وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطئ  
البحر الرومى ، وهاجر الفوط من جرمانيا الى جنوبى أوروبا وداهموا المملكة  
الرومانية ، وهاجر الروم من بلادهم الى شواطئ البحر المتوسط وجزره وشواطئ  
البحر الاسود وبلادهم وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط  
رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت فى العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين  
الى أميركا ، عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك  
هجرة الهولانديين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين  
والجرا كسة الى البلاد العثمانية ، وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة  
المسلمين الروسيين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة  
من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للسكناً والمراعى ، أو للتجارة بنتائج مواشيتهم  
وحاصلاتها ، وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة  
وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلاً :